التناسب بين ابن سنان الخفاجي وحازم القرطاجني

- المفهوم والتّجليّات -

« **Appropriateness** » **between** «**Ibn Sinan al–Khafaji** » **and** « **Hazim al qartajanni** »

– Concept and manifestations –

د. جميلة قوجيل

جامعة البليدة (2)

ملخّص:

حظي مفهوم التناسب باهتمام العرب القدماء إذ أدركوا وظيفته في بناء النصّ باعتباره أساساً من أسسه، يسهم في تضافر عناصره، والتّأليف بينها كالخيط النّاظم بين حبّات العقد، وغيابه يعني التّشتّت والتّنافر. وفي هذا السياق نحاول الكشف عن مفهومه وتجليّاته عند علمين من أعلام البلاغة والنّقد ابن سنان الخفاجي من خلال مؤلّفه " سرّ الفصاحة " وتلميذه حازم القرطاجنيّ في " منهاج البلغاء وسراج الأدباء ".

Abstract:

The concept of « appropriateness » received a great interest by ancient Arab researchers. They have known its function in the construction of the text, and had considered it as a basic element of textuality. Presence of "appropriateness" contributes in the establishment of cohesion and combination between different elements of the text, while its absence leads to dispersion and disharmony.

In this context, we try to reveal the concept of "appropriateness" and its manifestations in Arabic rhetoric and criticism through two important works; "Sir al Fassaha" written by «Ibn Sinan al-Khafaji », and "Minhaj al Boulaghaa wa Siraj al Oudabaa" written by his disciple: « Hazim al qartajanni ».

Key terms: *Appropriateness, Ibn Sinan al-Khafaji, Hazim al qartajanni.*

*** *** ***

التناسب لغةً من الفعل ناسب فهو نسيبه أي قريبه، والنَّسبُ القرابةُ. ومن المجاز أن يقال: بين الشّيئين مناسبة وتناسب أي مشاكلة وتشاكُل 1. وهو مفهوم من المفاهيم النصيّة الّتي تسهم في تحقيق الانسجام والتآلف. وقد تنبّه الشّعراء والدّارسون – قبل هذين النّاقدين – إلى أهميّته، حيث ذكره أبو العبّاس الناشئ في أبيات له بمعنى المشاكلة، حاصرا مفهوم الشّعر في هذه الخاصيّة من خلال أسلوب القصر 2:

إنّما الشعر ما تناسب في النظـــــــم، وإن كان في الصّفات فنونا

فأتى بعضه يشاكل بعضاً قد أقامت له الصدور المتونا

كما ورد عند الحاتمي بمعنى النّظام المتّحد العناصر بما يحقّقه من ملاءمة، وذلك في قوله: " مَثَلُ القصيدة مثل الإنسان في اتّصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحّة التركيب، غادر الجسم ذا عاهة تتخوّن محاسنه، وتعفّى معالمه، وقد وجدت حذّاق المتقدّمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراسا يجنّبهم شوائب النقصان، ويقف بهم على محجّة الإحسان، حتى يقع الاتّصال، ويُؤمن الانفصال، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها، وانتظام نسيبها بمديحها، كالرسالة البليغة، والخطبة الموجزة، لا ينفصل جزء منها عن جزء..." 3

وسنتتبّع في هذا العرض مفهوم التّناسب وتجليّاته عند كلّ من ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) في سرّ الفصاحة، وحازم القرطاجني (ت 684هـ) في المنهاج على اعتباره آخذا عنه، ومضيفا له، بما يتوافق ورؤيته الشّعريّة والنّقديّة.

التناسب عند ابن سنان الخفاجي:

يتنزّل مفهومه للتّناسب في سياق حديثه عن شروط فصاحة الألفاظ المؤلّفة، وهو على ضربين 4: مناسبة بين اللّفظين عن طريق الصيغة، ومناسبة بينهما عن طريق المعنى. كما نلحظ ضرباً آخر من التّناسب ورد في مقام الكلام على المعاني مفردة لذا أطلقنا عليه تناسب المعاني في مقابل تناسب الألفاظ بضربيه الآنفي الذّكر.

- تناسب الألفاظ الصّيغي والمعنوي:

يتعلّق الضرب الأوّل بصيغة الألفاظ من حيث انسجامها الصّوتي، كتشاكل صيّغها الصّرفيّة أو تماثل وتقارب حروف مقاطع الكلام وتماثل الحركات الإعرابية في القوافي أو الاشتراك في النّاحية الاشتقاقيّة وغيرها من أشكال الانسجام الصّوتيّ التّي يحفل الخفاجيّ بإبرازها. يستهلّ بهذا القول مبيّنا مواطن تناسب صيّغه:

" إذا كنت لا تؤتى من نقص كرم وكنت لا أوتى من ضعف سبب فكيف أخاف كم خيبة أمل أو عدولا عن اغتفار زلل أو فتوراً عن لمّ شعث وإصلاح خلل، فناسب بين نقص وضعف وكرم وسبب وعدول وفتور بالصيغ. وإلاّ فقد كان يمكنه أن يقول: مكان نقص قلّة، فلا يكون مناسباً لضعف ومكان كرم جوداً، فلا يكون مناسباً لسبب أو مكان سبب شكراً فلا يكون مناسباً لكرم ومكان فتور تقصيراً فلا يكون مناسبا لعدول" [5]. كما ورد في الحديث الشّريف حيث عدل النبيّ ﷺ عن استعمال اللّفظة المألوفة إلى ما يحقّق تناسبها في قوله للحسن والحسين عليهما السلام: " أعيذكما بكلمات الله التامّة من كلّ شيطان وهامّة ومن كلّ عين لامّة". ولم يقل ملمّة لأجل المناسبة، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في بعض الحديث: "ترجعن مأزورات غير مأجورات" لأنّ مأزورات من الوزر والمستعمل موزورات، فجاء به هكذا لأجل المناسبة " 6.

ومن تفريعات التناسب الصّيغيّ السجع والازدواج " ويحدّ السجع بأنّه تماثل الحروف في مقاطع الفصول"7. يتحقّق هذا الانسجام الصّوتي في القرآن من خلال الفواصل، وهي على ضربين في رأي الخفاجيّ 8: ضرب يكون سجعاً، وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع، وضرب لا يكون سجعاً، وهو ما تقابلت حروفه ولم تتماثل. وقد ورد في القرآن المتماثل والمتقارب من الفواصل مثال الأولى قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ (الطور: 1-3). أمّا الثّانيّة فيمثّلها قوله عزّ وعلا: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: 2-3).

وينتقل الخفاجي من السجع إلى القوافي في الشّعر لأنّها تجري مجراه، متطرّقا إلى أهمّ مظاهر تناسبها كتجنّب عيوب القافية من إقواء وإيطاء وسناد وغيرها. أمّا الإقواء فهو اختلاف الحركة الإعرابية من قافية إلى أخرى كالانتقال من الجرّ إلى

الرّفع، وهذا ما يروى عن النّابغة الذبيانيّ الذي لم يفطن لهذا العيب إلاّ بعدما سمع قصيدته تُغنّى فتنبّه لعدم انسجام البيتين صوتيّا في قوله:

من آل ميّة رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزوّدِ

زعم البوارح أنّ رحلتنا غداً وبذاك خبّرنا الغراب الأسودُ

فأقلع عنه 9. ويقصد بالإيطاء أن تتكرّر القافية ذاتها مرّتين في القصيدة الواحدة بالمعنى ذاته 10. ولم يورد الخفاجي مثالا عن هذا العيب. ومثال تكرار القافية قول ذي الرمّة يصف مَاءًا ورده 11:

صدى آجنٍ يزوي لَهُ الْمَرْء وَجهه وَلَو ذاقه ظمآن فِي شهر ناجر

ومناهما بالخمس وَالْخمس بعده وبالحل والترحال أَيَّام ناجر

أمّا السّناد فهو " اختلاف في الحركات قبل حروف الرويّ، كما قال عدي بن زيد:

ففاجأها لاقت جموعاً على أبواب حصنٍ مصلتينا

فقدمت الأديم لراهشيه وألفى قولها كذباً ومينا

فالميم من ميناً مفتوحة، والتاء من مصلتينا مكسورة " 12. كما يرى الخفاجيّ أنّ من عيوب القوافي في ترك التناسب كون الروي على حرفين متقاربين، وهو شاذ نادر. يمثّل لذلك بقول الشّاعر13:

بُنيّ إن البر شيءُ هيّنُ المنطق اللين والطعيم

فجمع بين النون والميم رغم تقاربهما في المخرج وهو ما يسمّى الإكفاء14. ومن العيوب أيضا أن تكون قافية المصراع الأوّل من البيت الأوّل على رويّ ينبئ أن تكون قافية آخر البيت بحسبه فيأتي بخلافه، ويسمّى التّجميع كقول عمرو بن شاس:

تذكّرت ليلى لات حين أدكارها وقد حنى الأضلاع بتضلال

يتوهّم المتلقّي من خلال " أدكارها " أنّ القافية رائيّة، لكنّ الشّاعر يخالف هذا التّناسب الصّوتي إلى قافية أخرى 15.

ومن التّناسب الصّيغيّ التّصريع والتّرصيع. أمّا الأوّل فيجري مجرى القافية إلاّ " أنّه في آخر النصف الأول من البيت والقافية في آخر النصف الثاني منه " 16. ويراه الخفاجي حسنا إذا ما كان في أوّل القصيدة فيدلّ على الابتداء وينبئ برويّها وقافيتها، ويحسن ما قلّ منه، أمّا إذا تكرّر في غير هذا الموضع فهو غير مرضيّ 17.

أمّا الثّاني - ونقصد الترصيع – فـ " هو أن يعتمد تصيير مقاطع الأجزاء في البيت المنظوم أو الفصل من الكلام المنثور مسجوعة وكأنّ ذلك شُبّه بترصيع الجوهر في الحليّ... قالت الخنساء:

حامي الحقيقة محمود الخليقة مهـــــــدي الطريقة نفاع وضرار

جواب قاصية جزار ناصية عقاد ألوية للخيل جرار 18

كما يعدّ حمل اللفظ على اللفظ في الترتيب من التّناسب "... ليكون ما يرجع إلى المقدم مقدّماً وإلى المؤخر مؤخّراً، ومثال ذلك قول الشريف الرضي:

قلبي وطرفي منك هذا في حمى قيظ وهذا في رياض ربيع 19

ومن تجليّات هذا المفهوم أيضاً " التناسب في المقدار، وهذا في الشعر محفوظ بالوزن، فلا يمكن اختلاف الأبيات في الطول والقصر فإن زاحف بعض الأبيات، أو جعل الشعر كلّه مزاحفاً حتى مال إلى الانكسار وخرج من باب الشعر في الذوق كان قبيحاً ناقص الطلاوة... "20، كما ورد في قصيدة عبيد بن الأبرص 21:

أقفر من أهلِه ملحُوبُ فالقطبيَّاتُ فالذنوبُ

هذا في المنظوم، أمّا في المنثور فيكون تناسب المقدار بتساوي الفصول، أو أن يكون الفصل الثاني أطول من الأوّل.

ومن التناسب الصّيغيّ للألفاظ المجانس، ويقصد به اشتراك الألفاظ في الاشتقاق إضافة إلى الاشتراك في المعنى، أو ما يقوم مقام المشتق في حالة اختلاف المعنى وتوافق الصيغة، ويحسن إذا ما ورد غير متكلّف22. وقد ورد في القرآن الكريم في قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (التوبة:127)، وفي قوله الكريم: ﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور:37). وفي كلام النبيﷺ:" عصيّة عصت الله وغفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله " 23. ويمثّل الخفاجي لما اتّفقت صيغته واختلف معناه بكلمتي "... هوجل وهوجل في قول الأفوه الأودي:

وأقطع الهوجل مستأنساً بهوجل عيرانة عنتريس

لأنّ لفظة الهوجل واحدة والمراد بالأولى الأرض البعيدة وبالثانية الناقة العظيمة الخلق... " 24. ويتفرّع المجانس إلى مجانس التّركيب ومجانس التّصحيف. يتمثّل

الأوّل في توافق الصيغتين عن طريق التركيب بين الكلمتين. وقد عُرِفَ به شعر أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان كقوله:

مطايا مطايا وجدّكن منازل مني زل عنها ليس عني بمقلع

ويستهجنه الخفاجي ويخرجه من أوصاف الفصاحة والبلاغة. أمّا الثّاني فهو ما قام على تجانس أشكال الحروف في الخط كالمعتزّ والمغترّ، ويراه غير متعلّق بحسن الكلام أو قبحه ولا بصيغة اللّفظة 25.

أمّا تناسب الألفاظ المعنويّ فيتجلّى من خلال وجهين: الوجه الأوّل يتمثّل في التّقارب، أمّا الوجه الثّاني ففي التّضاد أو القرب من التّضاد ويسمّى كذلك المخالف، أمّا ما خرج عن الوجهين فليس من المناسبة. ويتجاوز الخفاجي الوجه الأوّل فلا يشرحه أو يمثّل له إلى الوجه الثّاني: المتضاد من معاني الألفاظ وهو المطابق حسب اصطلاح أصحاب صناعة الشّعر26. ينقسم المتضاد إلى قسمين: المطابق وهو تضاد لفظتين من حيث المعنى كالسّواد والبياض. أمّا المقابلة فهي " تقابل المعاني والتوفيق بين بعضها وبعض حتى تأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصحة..." 27ويرجئ التّمثيل لها إلى تناسب المعاني.

- تناسب المعاني:

يستهلّ ابن سنان الخفاجي فصل" الكلام في المعاني مفردة " بتبيان القصد من حديثه عن المعاني على اتّساع هذا المضمار، فيحصرها في صناعة تأليف الكلام لتمييز الصحيح من الفاسد منها. كما يحصر وجودها في أربعة مواضع: وجودها في أنفسها، ووجودها في الأفهام، ووجودها في الألفاظ، وكذا وجودها في الخط. ويحصر غرضه في وجودها اللّفظي "... ثم ليس نتكلم عليها من حيث وجدت في جميع الألفاظ بل من حيث توجد في الألفاظ المؤلفة المنظومة على طريقة الشعر والرسائل وما يجرى مجراهما فقط إذ كان ذلك هو مقصودنا في هذا الكتاب " 28.

يتبع تبيانه لغرضه بحديثه عن أوصاف المعاني جملة ثمّ تفصيلا 29، نقتصر على مظاهر التّناسب فيها، وهذا ما يتجلّى في صحة المقابلة في المعاني " وهو أن يضع مؤلف الكلام معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض، فيأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصحة والأصل في هذه المناسبة فإنّ لها تأثيراً قويّاً في الحسن. ومن أمثلة ذلك في النظم قول الطرماح:

أسرناهم وأنعمنا عليهم وأسقينا دماءهم الترابا
فما صبروا لبأس عند حرب ولا أدّوا لحسن يد ثوابا

وهذه مقابلة صحيحة " 30.

ونلحظ أنّ هذا التناسب وإن كان معنويّا فهو يقع في البيت أو البيتين ليس أكثر، ولا يتجاوزهما إلى مجموع الأبيات أو النصّ ككلّ. لذا نخلص إلى أنّ هذا المفهوم عند ابن سنان الخفاجيّ قد ارتبط بمبحث الألفاظ أكثر من ارتباطه بالمعاني، فكان مفهوما شكليّا تحسينيّا يتعلّق بالانسجام الصّوتي الذي تسهم فيه الصيغة الصّرفيّة وتوافق مقاطع الكلام في حروفها وحركاتها أو تقاربها، وتماثل اللّفظتين من النّاحيّة الاشتقاقيّة وتجانسهما. وبذلك لم يخرج مفهومه للتّناسب عن حدود اللّفظتين أو بعض الألفاظ. أمّا التّناسب المعنويّ سواء أتعلّق بالألفاظ أو المعاني فلم يفصّل فيه تفصيله فيما سبق، ولم يتجاوز علاقتي التّقارب التّي سكت عنها وعلاقة التّضاد التّي فرّعها إلى المطابق الذي لا يتجاوز كذلك اللّفظتين، والمقابلة التّي أرجأ التمثيل لها إلى فصل المعاني، وهي المفهوم ذاته، وحدودها الجملة والبيت الشّعريّ أو البيتين. وتؤكّد هذه الرؤية تصنيف "سرّ الفصاحة " ضمن المؤلّفات البلاغيّة المغرقة في الانتصار للّفظ 31، وذلك يرتبط بمفهومه للإعجاز الذي يراه كمعتزليّ في الألفاظ التي تقوم على الأصوات لا على المعاني النّفسيّة حسب رؤية الأشاعرة.

التناسب عند حازم القرطاجنيّ:

سعى القرطاجنيّ في مؤلّفه إلى التّنظير للشّعر من خلال رؤية كليّة للقصيدة محتكما إلى ما سمّاه بالعلم الكليّ وهو البلاغة، في مقابل علوم اللّسان الجزئيّة، وهي بلاغة معضّدة بالأصول المنطقيّة والحكميّة 32، لذلك اتّسمت رؤيته بالعمق والنّضج بما في ذلك مفهومه للتّناسب، والسبيل إلى معرفة آلياته لا يتوصّل إليها إلاّ بواسطة هذا العلم "ومعرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلاّ بالعلم الكليّ في ذلك وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع " 33. ويتجلّى المفهوم في المنهاج من خلال مظهرين أساسيين نتناولهما بالدّراسة: تناسب المعاني والتناسب العروضيّ ونظرا لضياع القسم الأوّل من الكتاب المتعلّق بالألفاظ أغفلنا هذا

المظهر من التّجلّي وهو تناسب الألفاظ، ولكنّ الإشارات والملاحظات المبثوثة بين ثنايا الأقسام الثلاثة الأخرى من المؤلّف تكشف عنه، وتثبت حضوره واحتذاء القرطاجنيّ حذو أستاذه ابن سنان الخفاجي 34، لذا ركّزنا على ما أضافه وأسهم فيه متجاوزا اللّفظ إلى رؤية أرحب.

تناسب المعاني:

يرتبط مفهومه للتّناسب بمفهومه للشّعر القائم على المحاكاة والتخييل، حيث يعرّف الشّعر قائلا: " الشّعر كلام موزون مقفّى... بما يتضمّن من حسن تخييل ومحاكاة مستقلّة بنفسها أو متصوّرة بحسن هيأة تأليف الكلام... " 35. وقال في موضع آخر متأثّرا بابن سينا أنّ: "... صنعة الشّاعر هي جودة التّأليف وحسن المحاكاة، وموضوعها الألفاظ وما تدلّ عليه " 36.

ولم يخرج مفهومه للمحاكاة عن المفهوم العربيّ الذي يراها مرادفا للتّشبيه 37، ونؤكّد في هذه الرّؤية على فكرة المشابهة والمقاربة، ونربطها بالمعنى اللّغويّ للتّناسب -كما رأينا فيما سبق – وهو القرابة والتّشاكل. والمحاكاة طريق المبدع إلى التّخييل وهو: " أن يتمثّل للسّامع من لفظ الشّاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة، أو صور ينفعل لتخيّلها وتصوّرها، أو تصوّر شيء آخر بها انفعالا من غير رويّة إلى جهة من الانبساط أو الانقباض " 38، فهو إيهام للسّامع بإقامة صورة في خياله تجعله ينفعل انبساطا أو انقباضا. وقوام المحاكاة هو التّناسب، وهو أصل في الوجود ومبدأ من مبادئ الكون لا يشذّ عنه كائن من الكائنات 39. يقول ابن سينا فيما يستشهد به القرطاجنيّ من كتاب الشّفاء: " وهذا كلّه للمناسبة بين الصورة مثلا وما يحاكيها، وهذه المناسبات أمور في الطبيعة " 40.

وللتّخييل أحوال ومقامات، أفضلها ما تحقّق فيها تناسب المعاني والأغراض والمقامات، وما تُحْدِثُ من أثر في النّفس " وأحسن مواقع التّخييل: أن يناط بالمعاني المناسبة الغرض الذي فيه القول كتخيّل الأمور السّارة في التّهاني والأمور المفجعة في المراثي، فإنّ مناسبة المعنى للحال التّي فيها القول وشدّة التباسه بها يعاون التّخييل على ما يراد من تأثّر النّفس لمقتضاه " 41. كما يشترط لحسن المحاكاة حسن الاقتران والتّشاكل حتى لا ينتهج بالتخييل طريق السّذاجة، وهذا ما

أوضحه في قوله: " ويجب أن لا يسلك بالتّخييل مسلك السّذاجة في الكلام، ولكن يتقاذف بالكلام في ذلك إلى جهات من الوضع الذي تتشافع فيه التّركيبات المستحسنة والتّرتيبات والاقترانات والنّسب الواقعة بين المعاني، فإنّ ذلك يشدّ أزر المحاكاة ويعضدها. ولهذا نجد المحاكاة أبدا يتّضح حسنها في الأوصاف الحسنة التّناسق المتشاكلة الاقتران، المليحة التّفصيل... " 42

والتناسب حاضر في فكر القرطاجني منذ بدء الصناعة الشّعرية، منذ أن تكون دافعا وباعثا في النّفس، حيث يذكر في كيفية اجتلاب المعاني تناسب النّفوس والأمور الباعثة على النّظم 43. ولعلّ ذلك ما يجعل شاعرا يختصّ بغرض شعريّ، ويجيد فيه دون غيره من الأغراض لموافقة البواعث لطبيعته النّفسيّة وقدرته الشّعريّة، وهو ما يتمثّل في الطبع الذي له دور هامّ في تحديد التّخصّص الشّعريّ.

وتتناسب المعاني بعضها إلى بعض، فمنها ما يتقارب، ومنها ما يتضاد ويتخالف، ولهذا المضاد أيضا معنى أو معانٍ تناسبه، وهذا ما يذكرنا بالخفاجي في تناسب المعاني. ويذكر المتناسبات بالتّجاور والاصطحاب والاتّفاق من النّفس. وتقترن المعاني اقتران تماثل، واقتران مناسبة، واقتران مطابقة أو مقابلة – اقتران المعنى بمضاده –واقتران مخالفة أي اقتران الشيء بما يناسب مضادّه، واقتران الشيء بما يشبهه وهو تشافع الحقيقة والمجاز44.

ولا بدّ للشّاعر في استثارة المعاني من التّنبّه إلى هيآت التئام الأوصاف وموضوعاتها، ونسب بعضها إلى بعض، وموقعها من النّفوس والتّفطّن إلى ما يليق بها بحسب الموضع والغرض. ويكون بالقوّة الشّاعرة بأنحاء اقتباس المعاني وملاحظة وجوه الالتئام، وهذا بقوّة التّخيّل والملاحظة لنسب بعض الأشياء من بعض. وهذا بحسب وقوعها في الوجود، " ... وكانت للنّفس قوّة على معرفة ما تماثل منها وما تناسب وما تخالف وما تضاد. وبالجملة ما انتسب منها إلى الآخر نسبة ذاتية أو عرضيّة ثابتة أو متنقّلة، يمكن أن تركّب بالانتساب بعضها إلى بعض تركيبات، أو بالنّسبة التّي لم تقع، لكنّ النّفس تتصوّر وقوعها بسبب انتساب بعض الأجزاء إلى بعض وتنشئ صورا شتّى من ضروب المعاني في ضروب الأغراض " 45. وبذلك فللشّاعر قوى تسهم في مراعاته للتّناسب هي: القوّة

الملاحظة لما يناسب الأشياء، والقوّة المائزة التّي تميّز ما يلائم مقتضى الحال وما لا يلائمه، والقوّة الصّانعة الّتي تتولّى الضمّ والالتئام 46.

ولا يقف القرطاجني عند هذا القدر من التّناسب بل يفصّل في مراعاة مقتضى الحال بتناسب الألفاظ والأغراض باعتبار التّأثير في المتلقّي، في قوله: " وإنّما الوضع المؤثّر وضع الشيء الموضع اللائق به، وذلك يكون بالتّوافق بين الألفاظ والمعاني والأغراض من جهة ما يكون بعضها في موضعه من الكلام متعلّقا ومقترنا بما يجانسه ويناسبه ويلائمه من ذلك. والوضع الذي لا يؤثّر يكون بالتّباين بين الألفاظ والمعاني والأغراض من جهة ما يكون بعضها في موضعه من الكلام متعلّقا ومقترنا لما يناقضه ويدافعه وينافره "47.

ويبيّن في موضع آخر ما يناسب كلّ غرض من ألفاظ ومعانٍ، فالمديح تناسبه جزالة الألفاظ والمعاني وفخامتها، مع النّظم المتين والعذب في الحين ذاته. أمّا النسيب فألفاظه مستعذبة، ومعانيه حلوة لطيفة سهلة، في حين أنّ الرّثاء وإن امتازت ألفاظه بالسّهولة والألفة، فهو شاجي الأقاويل، مبكي المعاني، مثير التّباريح، يستفتح بما يدلّ على الغرض من الكلام، غير مستهلّ بنسيب لعدم موافقة المقام له، وإن وقع في ذلك القدماء48. وهذا ما جاء في كلام الخفاجي في حديثه عن وضع الألفاظ موضعها اللائق، فلا يعبّر عن المدح مثلا بألفاظ الذمّ ، ولا عن الجدّ بألفاظ الهزل 49.

كما يتجلّى مفهومه للتّناسب في نظرته إلى التّأليف وإجادة وضع العبارات ورصفها. وهذا ما يوضّحه في قوله ذاكرا التّلاؤم ومبيّنا مواقعه: " والتّلاؤم يقع في الكلام على أنحاء: منها أن تكون حروف الكلام بالنّظر إلى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها، وائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاصقها منتظمة في حروف مختارة متباعدة المخارج مرتّبة التّرتيب الذي يقع فيه خفّة وتشاكل ما، ومنها ألاّ تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال، فتكون الواحدة في نهاية الابتذال والأخرى في نهاية الحوشية وقلّة الاستعمال، ومنها أن تتناسب بعض صفاتها..."50 من اشتقاق وتماثل أوزان وتوازن مقاطع. وهذه هي شروط فصاحة الألفاظ عند الخفاجي 51، وقد أضاف إليها صاحب المنهاج تطالب الكلم لبعضها البعض بما يليق بموضعها. ويوضّح القرطاجنيّ أنّه قد لا تتوفّر في الكلام هذه

الشّروط، ومع ذلك يكون التّلاؤم، ومرده إلى النّسبة والتّشاكل الذي يعرض في التّأليف ولا تعرف حقيقته. ويخلص به المطاف إلى ذكر سمات في تأليف الألفاظ تحقّق تناسبها هي العذوبة والطلاوة والجزالة 52.

ولصاحب المنهاج رؤية شاملة للقصيدة يقوم تصوّره لها على مبدإ التّناسب، فبعد أن ينتقل الشّاعر عبر مراحل تكوّنها وصناعتها فيجتلب المعاني المناسبة يصل إلى الصّورة النّهائيّة للعمل الأدبيّ. والقوّة المضطلعة بذلك من القوى الفكرية التّي يمتلكها الشّاعر هي القوّة على تصوّر صورة للقصيدة منسّقا بين المعاني والأبيات والفصول، مراعيا المطلع فيها وحسن الانتقال من غرض إلى آخر إلى أن يخلص إلى نهايتها 53.

والقصيدة في صورتها الكليّة تنبني كذلك على التّناسب، وذلك من خلال إحكام مبناها وتحسين هيآتها بدءًا بالاعتناء بالمطلع وحسن الاستهلال، ثمّ الإبداع في التّخلّص والاستطراد بما يلائم ما قبله، وذلك بحسن الانتقال بين الأغراض. ويحضرنا الخفاجيّ في كلامه عن صحّة النسق والنّظم الذي مثّل مظهرا من مظاهر تناسب المعاني- وإن لم يستخدم المصطلح - وهو حسن التّخلّص من غرض إلى آخر، فيكون الكلام آخذا بعضه بأعناق بعض54.

كما راعى التّناسب بين معاني الغرض الواحد كغرض النّسيب: " وأحسن ما ابتدئ به من أحوال المحبين ما كان مؤلما من جهة مُلِذّا من أخرى كحال التّذكر والاشتياق وعرفان المعاهد. فإنّ هذه الأحوال وإن كانت مؤلمة للنفوس فإنّ لكثير من النفوس في تخيّل ما يتذكر ويشتاق إليه ويحنّ إلى عهده لذة ما وتشفيّا، يكاد ينقع الغلة من حيث أذكاها ويسرّ النفس من حيث أشجاها وأبكاها. ثم يتدرّج من ذلك إلى ذكر ما يؤلم من بعض الأحوال التي لها علقة بهما معا، ثم إلى ذكر ما يؤلم ويلذّ من الأحوال التي لها بهما أيضاً علقة، ثم ينتقل من ذلك إلى ما يخصّ المحبوب من الأوصاف والمحاكاة، ثم يحتال في عطف أعنّة الكلام إلى المديح، فهذا هو الموضع التام المتناسب " 55.

وأبان أيضا عمّا يجب في تقدير الفصول وترتيبها أوّلا من خلال انتقاء موادها فيشترط تناسب المسموعات والمفهومات، وأن تكون غير متخاذلة النّسج بل كلّ بيت منحاز إلى غيره، مع مناسبة نظم الفصل للغرض، فالجزالة في الفخر

والعذوبة في النّسيب، مع الاعتدال في مقادير الفصول طولا وقصرا، وهو ما اندرج عند الخفاجي في التّناسب في المقدار. أمّا من حيث التّرتيب فيقدّم ما عناية النّفس به أخصّ حسب الغرض مع مراعاة حسن الاستهلال، ثمّ يتلوه الأهمّ فالأهمّ. أمّا ما تعلّق بترتيب الفصول فيما بينها فيكون بتقديم القصار على الطوال مع ضرورة وصلها. أمّا على مستوى بيوت الفصل الواحد فيقدّم المعنى المناسب لما قبله، ثمّ عمدة المعاني وما حاز نصاب الشّرف، ثمّ ما يتلوه من معانٍ ترتبط فيما بينها على وجه من جهات التقابل، أو يكون مقتضى له مثل أن يكون مسببا عنه، أو تفسيرا له، أو محاكيّا بعض ما فيه ببعض ما في الآخر، أو غير ذلك من الوجوه التي تقتضي ذكر شيء بعد شيء آخر. وكذلك الحكم في ما يُتلى به الثاني والثالث إلى آخر الفصل وفق العلاقات السابقة الذّكر أو غيرها من العلاقات 56.

- التناسب العروضي:

يقوم مفهوم الشّعر عنده على تناسب المسموع، لذا اعتبر معرفة صناعة العروض متوقّفة على معرفة جهات التّناسب يقول القرطاجنيّ: "... فإن معرفة صناعتهم موقوفة على معرفة جهات التناسب في تأليف بعض المسموعات إلى بعض ووضع بعضها تالية لبعض أو موازية لها في الرتبة " 57، وذلك عن طريق العلم الكليّ وهو علم البلاغة. وعلى أساس التّناسب يخالف العروضيين، ويصفهم بالجهّال بطرق التّناسب والتّنافر، وهذا الجهل دفعهم إلى تجزئة بعض الأوزان تجزئة متنافرة فـ " فوقعوا بها في حيّز الوضع المتنافر، فلذلك حقّقنا في كلّ وزن تجزئته المتناسبة " 58.

ويرى أنّ العرب في ضروب التّركيبات الوزنيّة تستعمل ما خفّ منها وتناسب لا ما استثقل وتنافر. ويمثّل للمتناسب بالخفيف – فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن- حيث أنّ الجزء المفرد ورد بين الجزءين المزدوجين، أمّا ما تقدّم فيه المفرد فأهملته العرب لثقل الجزءين المتكرّرين مقارنة بالمفرد " فالصّدر أولى بهما على قياساتهم، وتصدير الأشطار أيضا بما يظهر فيه التّناسب أولى من تصديرها بما لا يظهر فيه تناسب " 59.

أمّا وزن الدبيتي وإن لم يثبت عن العرب الأوائل بل نظم فيه المتأخّرون من شعراء المشرق، فقد أثبته القرطاجنيّ لاستطرافه ووضعه المتناسب، إذ " جعلوا

الجزء المفرد فيه تساعيّا والمتشافعين في تفعيلاته: مستفعلن مستفعلن مفتعلن سباعيين، فقدّموا التّساعيّ وتلوه بما يناسبه من السباعيات وجعلوا الجزء الثاني من السباعيين في أكثر الاستعمال - وهو المستطاب في الذوق والأحسن في الوضع - ينقص عن الأول ليكون كلّ واحد من الأجزاء أخفّ ممّا قبله. وتحرّوا في ذلك أن يكون كلّ جزء مناسبا لما قبله، وذلك هو الوزن الذي يسمّونه الدبيتي وشطره المستعمل: مستفعلتن مستفعلن مفتعلن، نحو قول القائل:

هذا ولهي، وقد كتمت الولها صونا لحديث من هوى النفس لها" 60.

كما تنقسم أوزان الشّعر على أساس التناسب إلى وزن تامّ التّناسب، ومتركّبه ومتقابله ومتضاعفه، حيث " تمام التناسب فيها مقابلة الجزء بمماثله، وتضاعف التناسب هو كون الأجزاء التي لها مقابلات أربعة، وتركب التناسب هو كون ذلك في جزأين متنوعين كفعولن ومفاعيلن في الطويل، وتقابل التناسب هو كون كلّ جزء موضوعا من مقابله في المرتبة التي توازيه، فإن كان الواحد في صدر الشطر الأول كان الآخر في صدر الشطر الثاني، وإن كان ثانيا كان مقابله ثانيا، وإن ثالثا فثالث. فالأعاريض التي بهذه الصفة هي الكاملة الفاضلة61 ". وهذا ما يتّسم به كلّ من البسيط والطويل لذلك لهما الشّرف على بقيّة الأوزان، فالتّمام فيها في مقابلة كلّ تفعيلة بما يماثلها. والتضاعف المقابلات الأربعة لكلّ تفعيلة، والتّركب تنوّعها فليست من البحور السّاذجة الأحاديّة التفعيلة. كما تمتاز بالتّقابل وهو توازي وضع كلّ جزء في شطري البيت.

إنّ التأليف بين المتناسبات يترك حلاوة يجدها المستمع، وتناسب الأوزان يقوم على نسبة معيّنة من السواكن مقارنة بالمتحرّكات لا يجب تجاوزها. أمّا كثرة السواكن التّي تعني الوقفات والفواصل في البيت فتؤدّي إلى الكزازة أي التقطّع والتّقبّض وكذا التّوعر. في حين أنّ كثرة المتحرّكات تؤدي إلى اللدونة والسّباطة وهي الاسترسال والتّدفق والسهولة، حيث " أنّ الوقفات إذا طالت أو كثرت توقّف استرسال الوزن وتقطّع امتداد الصوت فيه. وبالتّالي يكون تقطّع الوزن أو جعودته قرين زيادة السّواكن. كلّما زادت السّواكن زاد التّقطّع والعكس صحيح " 62. ويتحقّق اعتدال الوزن إذا ما كثرت سواكنه بالحذف شرط عدم الإجحاف، لذلك يحدّد القرطاجنيّ نسبة معيّنة "... أن تكون السواكن حائمة حول ثلث مجموع

المتحرّكات والسواكن إمّا بزيادة قليلة أو نقص، ولأن تكون أقلّ من الثلث أشدّ ملائمة من أن تكون فوقه" 63.

ولهذه الخصائص الصّوتيّة لكلّ وزن، وبحسب التّرتيب والوضع والمقدار تتحدّد سمته في السّمع، وقوّته أو ضعفه، وخفّته أو ثقله، وبذلك فلكلّ وزن سماته المعنويّة النّاتجة عن المسموع التّي تجعله مناسبا لغرض دون آخر. فعلى هذا المستوى تكون محاكاة الشّاعر أيضا بتخييل الأغراض بالأوزان " فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضع قصدا هزليا أو استخفافيا وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كلّ مقصد " 64. ومنه فلكلّ وزن سمات ينفرد بها تجعله أليق لغرض دون آخر. فلبهاء الطويل وقوّته وفخامته ناسب الفخر، وللين المديد والرمل ناسب الأحوال الشّاجيّة كالرّثاء وما جرى مجراه، إلى غيرها من الأغراض65.

نخلص من خلال ما سبق إلى أنّ مفهوم التّناسب الذي تجلّى كمحسنّ لفظيّ ومعنويّ عند ابن سنان الخفاجي، كان أكثر عمقا ونضجا في مفهوم حازم القرطاجنيّ. النّاقد الذي احتذى بأستاذه وضمّن سرّ الفصاحة فيه، ولكنّ سعيه كان حثيثا لا للكشف عن سرّ فصاحة المفرد والمؤلّف، وإنّما لأشمل من ذلك للتّنظير للشّعر. وكان للمفهوم في ذهنه بعدا وجوديّا كونيّا، ولمّا قام الشّعر على التّخييل عن طريق المحاكاة، كان على الشّاعر أن يراعي في محاكاته التناسب بين المفهومات والمسموعات. وكان للتناسب قوى فكريّة ترعاه وتتعهّده منذ كونه باعثا نفسيّا إلى اختيار الملائم من الألفاظ والمعاني والأعاريض وفق مقتضى الغرض إلى أن تكتمل القصيدة متناسبة الوضع، متشاكلة التّأليف. وبين الميلاد والاكتمال لا بدّ من مراعاة حسن مطلعها ومقطعها، وحسن التخلّص بين أغراضها وترتيب فصولها، ومراعاة الأشرف فالأشرف ضمن بيوت الفصل الواحد. ومنه كان مفهوم التّناسب قرين الوحدة والائتلاف، ولكن رغم نضج المفهوم وتخلّصه من النّظرة الزّخرفية التّحسينيّة إلا أنّ هذا التّناسب لم تتح له الظروف ليسفر عن وحدة تتفاعل عناصرها وتتكامل كالعضو الواحد، وإنّما هي وحدة التّسلسل التّقليديّة بين غرض وآخر وفق علاقة شكليّة هي حسن التّخلّص والاستطراد 66. ولم يكن

بمقدور صاحب المنهاج أن يتجاوز أطر عصره وشروحات الفلاسفة المسلمين لفنّ الشّعر الأرسطي إلى قراءة حديثة لهذا الكتاب تقول بالوحدة العضوية، هي كذلك نتيجة ملابسات العصر وما أفرزته مرحلة الرومنسيّة.

الهوامش:

[1] - ينظر: - جار الله الزمخشريّ: أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1419 هـ - 1998 م، ج 2، ص 265.

- محمد بن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، ط3، 1414 هـ، ج1، ص 755- 756.

[2] - الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401 هـ - 1981 م ج2، ص 113.

[3] - إبراهيم الحصري: زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت، د.ت، د.ط، ج3، ص 651.

[4] - ينظر: ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط1، 1402هـ، ص 169.

[5] - نفسه، ص 170.

[6] - نفسه، ص 176.

[7] - نفسه، ص 171.

[8] - ينظر: نفسه، ص 172.

[9] - ينظر: نفسه، ص 185.

[10] - ينظر: نفسه، الصفحة نفسها.

[11] - عبد الرحمن الزجاجي: الأمالي، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل – بيروت، ط2، 1407 هـ - 1987 م، ص123.

[12] - الخفاجي: سر الفصاحة، ص 185- 186.

[13] - نفسه، ص 187.

[14] - أبو العباس ثعلب: قواعد الشعر، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1995م، ص 64.

[15] - ينظر: الخفاجي: سر الفصاحة، ص 188.

[16] - نفسه، الصفحة نفسها.

[17] - ينظر: نفسه، ص 189.

[18] - نفسه، ص 190.

[19] - نفسه، ص 191.

[20] - نفسه، ص 192.

[21] - أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، تح: علي محمد البجادي، نهضة مصر، د.ط، د.ت، ص380.

[22] - الخفاجي: سر الفصاحة، ص 193.

[23] - أورد البخاري في صحيحه هذا الحديث مع اختلاف بسيط في ترتيب أجزائه، فذكر أن رسول الله ﷺ قال على المنبر: «غِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ، وَعُصَيَّةُ عَصَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، ينظر: - صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، الحديث رقم3513، باب ذكر أسلم وغفار ومزينة، ج4، ص 181.

[24] - الخفاجي: سر الفصاحة، ص 195.

[25] - ينظر: نفسه، ص 198- 199.

[26] - ينظر: نفسه، ص 199.

[27] - نفسه، ص 200.

[28] - نفسه، ص 235.

[29] - ينظر للتفصيل: نفسه، ص 235- 278.

[30] - نفسه، ص 267.

[31] - ينظر: حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، منشورات الجامعة التّونسية، ط1، 1981، ص 460.

[32] - ينظر: حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت، د. ط، ص 226، 231.

[33] - نفسه، ص 226.

[34] - ينظر: عمر إدريس عبد المطلب: حازم القرطاجني – حياته ومنهجه البلاغي، دار الجنادرية، الأردن، ط1، 2009، ص 149.

[35]- القرطاجني: المنهاج، ص 71.

[36] - نفسه، ص 81.

[37] - ينظر: مصطفى الجوزو: نظريات الشّعر عند العرب – الجاهلية والعصور الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1988، ج1، ص 105.

[38] - القرطاجني: المنهاج، ص 89.

[39] - ينظر: أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن – دراسة في النظم المعنوي والصوتي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1992 م، ص 11-12.

[40] - القرطاجني: المنهاج، ص 117.

[41] - نفسه، ص 90.

[42] - نفسه، ص 90-91.

[43] - نفسه، ص 11.

[44] - نفسه، ص 14-15.

[45] - نفسه، ص 38- 39.

[46] - نفسه، ص 43.

[47] - نفسه، ص 153.

[48] - ينظر: نفسه، ص 351 – 353.

[49] - ينظر: الخفاجي: سر الفصاحة، ص 161.

[50] - القرطاجني: المنهاج، ص 222.

[51] - ينظر: الخفاجي: سر الفصاحة، ص 64- 110.

[52] - ينظر: القرطاجني: المنهاج، ص 223- 225.

[53] - ينظر: نفسه، ص 200.

[54] - ينظر: الخفاجي: سر الفصاحة، ص 268.

[55] - القرطاجني: المنهاج، ص304- 305.

[56] - ينظر: نفسه، ص 288-290.

[57] - المنهاج، ص 226.

[58] - نفسه، ص 231.

[59] - نفسه، ص 240.

[60] - نفسه، ص 242.

[61] - نفسه، ص 259.

[62] - ينظر: جابر عصفور: مفهوم الشّعر – دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ط5، 1995، ص 317.

[63] - القرطاجني: المنهاج، ص 267.

[64] - نفسه، ص 266.

[65] - ينظر: نفسه، ص 269، 205.

[66] - ينظر: جابر عصفور: مفهوم الشّعر، ص 372.

*** *** ***